**الإنسان الديجيتالي ومعنى الحياة**

19-12-2020 | 00:00 **المصدر**: النهار

**نجم بو فاضل**

خرج زردشت من كهفه الجبليّ - كما يروي لنا نيتشه في هكذا تكلّم زردشت – وقد امتلأ حكمةً وفاضَ عسلُه، ينادي بالإنسان الخارق الذي لا يكنُّ وفاءً إلّا للأرض، ولا يرتكِنُ إلّا إلى القيم الجديدة التي ينُصُّها بقلمه على ألواحٍ جديدة... لكن نداءَه لم يَظفر بمبتغاه. بل ترك، على امتداد قرنٍ من الزمن، إنسانًا مفصومًا ومجتمعًا مُشَرَّمًا، تتنازعه الثنائيّاتُ على اختلاف أنواعها: العموديّة (كالدين والدنيا...) والأفقيّة (كاليمين واليسار...) والاستبطانيّة (كالعقل والقلب...) وغيرها من الثنائيّات التي ما انفَكَّت تَقسِم كلّ موجود في السماء وعلى الأرض وتفرزه وتصنّفه.

إنفصَمَ الإنسانُ وتشرَّم المجتمعُ وتصدَّع الوجودُ لأن البنى الميتافيزيقيّة لم تفسح للإنسان المجال لكي يتفلّتَ بالتمام من قبضتها أو يتملّصَ بالكامل من قيودها. فهي ترسي دعائمها على بنية الإنسان "التسامويّة"، ذلك "أن النوع الإنسانيّ – كما يُثبت ناصيف نصار في النور والمعنى -  يواجه معنى وجوده في كونه كائنًا متعاليًا بالنسبة إلى الطبيعة مع كونه واحدًا من كائناتها". كما أن الإنسان المعاصر، الذي يُفترضُ أنه ازداد وعيًا وبلغَ نضجًا وارتقى إدراكًا، بفضل العلوم التي تشعّبت اختصاصاتُها وتعمّقت، وبعون التكنولوجيا التي اتَّسع اشتغالُها وتسارع، لم يفلح بالانعتاق من استلاب تلك البنى، وبفكّ ارتهانه لها، ليعود من اغترابه ليستحوذ مجدّدًا على الوجود وعلى ذاته في هذا الوجود. كما أنه لم يفز بالدنيا فوزًا مُبينًا للأسباب التي ذكرناها آنفًا. بل غدا، على حدّ توصيف هايدغر، كائنًا زائف الوجود نَزَعَتْ عنه الثورةُ التكنولوجيّةُ أصالتَه.

فالتكنولوجيا، التي ابتكرها الإنسان لتساعده في عمله، وفَّرَت له، بتسارع خياليّ، تسهيلاتٍ لا تقاس، وأرفدته بفوائد تفوق الخيال، وأمدّته بمختلف الوسائل التي تؤازره في سعيه الدؤوب إلى إحكام سيطرته على الطبيعة والوجود. لكنها سرعان ما انقضَّت عليه وأخضعته لإيقاعها الآليّ. وراحت تجدُّ في السير لتطوير ذاتها، وتُسرِع في الخطى لتوسيع حقولها، وتَجمَحُ إلى الفوز بكلّ ما يمكن أن يحلّ محلّ الإنسان، وصولًا إلى الظفر بالإنسان الآليّ، الذي ترغب شديد الرغبة في أن يبلغ هذا الابتكار مبلغه فيُخرِج من رحمِهِ آلةً تكون على صورة الإنسان فمثاله.

إنها التكنولوجيا التي بلغت مرتبةً تعفي بها نفسها، في معظم الأحيان، من استئذان الإنسان على الولوج إلى صميم حياته لتؤدّي وظائف مستجدّة في حياته. وإذا كانت الجرثومة الاكليليّة المتفشيّة منذ العام 2019 قد خرجت من مختبراتها، عفوًا أو قصدًا، و/أو بتكافل الإنسان وتضامنه، أو تولّدت من عفويّة الطبيعة الغاضبة من مستوى التلوّث الذي أصابها، أو تعدّلت من جرثومة موجودة مسبقًا، فإنّ التكنولوجيا قد اقتنصت هذه الفرصة، واستغلّت خوف الإنسان، واغتنمت الإنجازات التي لا ينفكّ يهلّل لها، كي تتمكّن من إقحامه، هو المفصوم والمجبول بالخوف، في عالم جديد بات يُعرف بالعالم الافتراضيّ أو الرقميّ، الذي يُحكَم على القاطن فيه بأن يكون إنسانًا ديجيتاليًّا.

Volume 0%

هذا [#الإنسان الديجيتالي](https://www.annahar.com/arabic/news/listing?tag=%d8%a7%d9%84%d8%a5%d9%86%d8%b3%d8%a7%d9%86+%d8%a7%d9%84%d8%af%d9%8a%d8%ac%d9%8a%d8%aa%d8%a7%d9%84%d9%8a)ّ، وفق المفهوم المُضمَر في العقل التكنولوجيّ الذي يُفقِد بإبهاراته العقلَ البشريَّ ريادتَه، يختلف تمام الاختلاف عن الحيّز الذي تشغله الأدوات الديجيتاليّة في حياة الإنسان، وعن المكانة التي يحتلّها الدور الذي تلعبه في إدراكه لمعنى حياته في العصر الديجيتالي، حسب ما جاء في الإشكاليّة التي طرحها نيكولا آغر في كتابه لا تَكُن آلةً: كيف نبقى بشرًا في العصر الديجيتالي. فالأدوات الديجيتاليّة باتت مُلازمةً للوجود، أليفةً له، تسعفه في كلّ شاردة وواردة، تيسّر أموره وتخفّفُ مشقّاتِه وتُلطّف شدّتَها، تمدّه بكلّ عون ليلبّي كلّ مطمح يسعى إلى تحقيقه، ولا تبخل عليه بوسيلة يحتاج إليها لغاية تجول في خاطره... لكن مطواعيّتها هذه تلعب دورًا مزدوجًا يعجز الإنسان، في معظم الأحيان، عن التمييز به والفصل فيه والقطع في الحكم عليه.

فالتعليم عن بعد، مثلًا، وبصورة خاصّة في الدول المتقهقرة، كلبنان، والتي اصطُلِح على تسميتها دول العالم الثالث (مع أنها لا ترقى إلى هذا الرقم)، لا ينظر إلى العمليّة التربويّة برمّتها سوى من الجانب التقنيّ الذي يسمح بانتقال المعلومة من المعلّم إلى المريد، كأنّ المؤسّسةَ التعليميّة آلةٌ تلقينيّة يختصرها الكومبيوتر، والإنسانَ عقلٌ تقنيٌّ باردٌ يقتصر دورُه على التزوّد بالمعلومات. في حين أن علوم الروح، كالفلسفة والعلوم الاجتماعيّة والأنتروبولوجيّة... التي يُذيبها العقل التكنولوجيّ بسيله الجارف، تجهد للمحافظة على كرامة الإنسان الذي يحمل قيمًا يستحيل على الآلة ابتداعُها، وتجدّ في السعي لإبراز المعنى الإنسانيّ للحياة. فلا تنظر إلى العمليّة التربويّة إلّا بعين الإنسان المجبول بالعقل والقلب والروح، ولا تقارب مفاهيمَها إلّا من باب النمو العقليّ المبنيّ على الوعي والادراك، ولا تتصوّر إجراءاتها خارج التواصل الإنسانيّ والاجتماعيّ والحياتيّ ...

وإذا كانت بعض الظروف التي تطرأ على الوجود، كالأوبئة التي تتجاوز مخاطرُ تفشّيها معدّلات الأمراض التي تصيب اعتياديًّا الإنسان، أو التلوّثِ الذي تفوق مستوياته المعدّلات المقبولة نسبيًّا، أو الاكتظاظاتِ السكّانيّة التي تخنق الطبيعة ومواردها، تحتّم على الإنسان اتخاذ إجراءات وقائيّة تقيه شرور استفحال هذه الظواهر وظروفها، فإن المقاربة التي يقدّمها العقل التكنولوجي، الذي ينبغي له ألّا يتجاوز حدود الخدمة التي يرسمها له الإنسان، تتمايز في صميمها عن النظرة التي تتطلّع بها علوم الروح، التي لا يُؤذَن لها بأن تنكفئ عن دورها الرياديّ. فالعقل التكنولوجي يوصي باتخاذ الإجراءات الوقاية، في مواجهة الكوفيد 19 مثلًا، خوفًا من الموت فحسب، بينما توصي علوم الروح باعتماد إجراءات مختلفة ومتعدّدة، قد تكون في جزء منها شبيهةً بتلك التي توصي بها العلوم التكنولوجيّة. لكنها لا توصي بها خوفًا من الموت، بل حبًّا بالحياة وتقديرًا لمعناها.

**أستاذ فلسفة**